المجلة السياسية والدولية

اسم المقال: العالم العربي في مهب الريح: رؤية تشخيصية تحليلية في آليات التغيير
اسم الكاتب: أ.د. وائل محمد إسماعيل
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/2165
تاريخ الاسترداد: 2025/05/12 10:43 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من الصفحة الخاصة بالمجلة السياسية والدولية على موقع المجلات الأكاديمية العلمية العراقية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

العالم العربي في مهب الريح: رؤية تشخيصية تحليلية في آليات التغيير

أ.د وائل محمد إسماعيل(*)

المقدمة:

عن فوضى العالم العربي وتقاطعات إعلامه لما يسمى "بثورة الربيع العربي"ثمة رؤى لا تقبل الجدل تقر بعدمية الثورة وتوصيفها،لا للأدبيات التي حددتها العلوم السياسية لمعنى الثورة وإنما محاكاة للمنطق بما يجري ويخطط له.

الدكتاتوريات التي رحلت أو سترحل غير مأسوف عليها،بيد أن ما يؤسف عليه أن تكون الثورات فارساً بلا روية وبلا عقل قتلت أو أزاحت دكتاتوريات، لكنها سلمت الساحة للذئاب من الإرهابيين، وما يؤسف إليه أن تتحول الثورة من البناء إلى حركة فوضوية تنتج الفوضى.

الذين يدعمون الفوضى يدركون جلياً إن لا مكان لهم في الحياة إلا بالفوضى والهرطقة وإشعال الحرائق باستمرار.

يقول مكيافيللي :"هنالك اختلافاً هاماً بين الطريقة التي نحيا بها وتلك التي يجب أن نحيا بها بحيث ينتهي الأمر بالشخص، الذي يهمل الحقيقة لدراسة ما هو مثالي، إلى الخراب بدلاً من البقاء.[1]

ثمة آليات عملت أطراف خارجية على إطلاقها وتفعيلها وتوظيفها مع اللحظة التي أقرت تلك الأطراف ساعة الشروع لمشروع التغيير في العالم العربي، وهذه الآليات أطلقت لتدمير تلك الدول وإطالة أمد المعارك الداخلية فيها من معارك الهوية والدستور إلى الثقافة والأيديولوجيا والبناء الاقتصادي.

والآليات منها محصلة تغير أو تغيير بالغ في الحتمية تعلق بالشأن الداخلي للدول العربية التي انساح فيها التغيير، فتم توظيفها بذكاء وإبداع استراتيجي، لم يكن وليد اللحظة وإنما من خلال ترقب ودراسة مستفيضة لواقع تلك الدول وكيفية التغلغل فيها وتوقع ما ستؤول إليه الأمور فيما بعد، وأخرى كانت محصلة تخطيط استراتيجي خارجي للوصول إلى تلك المرحلة من اجل تمكين التغيير، وثالثة دور العامل الخارجي في صناعة التغيير مع كل الفواعل الداخلية الظاهرة بمظهر القائد للتغيير.

إزاء ما تقدم يعالج البحث إشكالية البحث الدائرة حول (العناصر الباعثة على التغيير) من خلال تحديد العناصر بدلالة الآليات الصانعة الفاعلة للتغيير، والنتائج التي ستتركها بصيغ معارك التغيير.

وتتوزع تلك العناصر(الآليات)إلى المحاور التالية:-

أولاً: آليات البدء في التغيير(الفواعل الداخلية الموظفة)

ثانياً: آليات بلورة التغيير أو الشروع به(الإبداع الخارجي من أجل تمكين التغيير)

ثالثاً: آليات بناء التغيير(صناعة التغيير).

رابعاً: المعارك والتحديات اللاحقة للتغيير.

أولاً:آليات البدء في التغيير(الفواعل الداخلية الموظفة):

(*)كلية العلوم السياسية-الجامعة المستنصرية.

[1] -نيقولا مكيافيللي،الأمير،ترجمة أكرم مؤمن،القاهرة،مكتبة ابن سينا،ط١، ٢٠٠٧، ص٨٨.

عاش العالم العربي حالة من الانكفاء القطري وتبديد الثروة والانكشاف المائي والغذائي والأمني والثقافي والاتجاه إلى الاستهلاك، كما اتسعت الفجوة بين أقلية مرتفعة الثروة وأكثرية ضائعة في ردهات الفقر، وعزز من ذلك علاقة التبعية مع السوق العالمي .[٢]

التردي والتراجع الخطير في الأوضاع العامة نتج عن الخلل البنيوي المتمثل في التفاوت الكبير في توزيع الدخل وغياب الديمقراطية وتآكل الثروات وتراجع الإرادة للتغيير، الفروق الطبقية الهائلة والديون وانتشار الفساد ونزوح الرساميل والعقول والإحباط العام الناتج عن الإخفاق في إخراج العالم العربي من مآزقه والتعامل مع قضايا الاستقلال الناجز والتبعية ومجابهة "إسرائيل" وعدم الاستغلال الأمثل للثروات وخاصة النفط، كل ذلك أوجد حالة عالية من الغضب والإحباط لدى غالبية من العرب .

كما حجم وقوض من قدرة الإنسان العربي الكثير من المخاطر على رأسها يأتي النظام السياسي ونظام القوة والقمع وانعدام الحريات والنزاعات والحروب والاحتلالات العسكرية وعدم سيطرته على مقدراته وتنحيته عن المشاركة في القرار السياسي الاقتصادي مما يجعله غريبا في وطنه.[٣]

وشهد العقد الأخير تحولات كبرى وعلى درجة عالية من الأهمية مست بشكل مباشر كل العرب بكافة أطيافهم ومشاربهم وانتماءاتهم الطبقية والدينية والفكرية والقطرية، وكان واضحا وجليا أن هذه الأنظمة سقطت تماما منذ زمن على صعيد الشرعية الشعبية، وحتى تكون القراءة أكثر علمية من الضروري الوقوف بصورة أكثر تحديدا أمام الأبعاد التي تشكل القوة الدافعة للثورة الجارية.

بالرغم من أن العالم العربي يختزن في باطنه وعلى أرضه ثروات طبيعية ضخمة،بما في ذلك المخزون الاحتياطي الهائل من النفط، و الكثير من الثروات الزراعية والبشرية فإن البلدان العربية كانت تستورد أكثر مما تنتج ،إذ يستورد الوطن العربي معظم حاجاته من الغذاء ويعتبر الأمن الغذائي من أهم التحديات التي تواجه العالم العربي الثروة النفطية العربية رغم كثافة عائداتها فأنها لم تكن قادرة على تمويل عملية التنمية العربية الشاملة.

فالنفط العربي بمقدار ما وفر من ثروات للبعض فقد وفر تهديدات وأوجد خللا في بنية النظام والمجتمع العربي وقاد إلى اكبر حروب في المنطقة، فالثروة عمقت الخلافات والفروق السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأغرت العالم باستعمار المنطقة والسيطرة عليها في ظل الضعف العربي، فدفع المواطن في الدول غير النفطية ثمن النفط آلاما وتضحيات ولم ينعم بعائداته، وغالبية السكان في الوطن العربي تعيش حالة فقر.[٤]

زاد من حدة هذا الواقع علاقة التبعية للسوق العالم وكمثال على ذلك الأزمة الاقتصادية التي كان من نتيجتها خسائر بآلاف المليارات وفي نفس الوقت العجز التام عن القيام بأية خطوة تمنع ذلك لان العرب ليسوا في مركز القرار الاقتصادي بل هم ممولين دون استحقاقات مما اضعف من القدرة على مواجهة تداعيات الأزمة.

قد كانت الأزمة الاقتصادية العالمية محطة مهمة ليتأكد المواطن العربي أن أموال وثروات العرب ليست لهم بل مسخرة لخدمة أعداء العرب وإذلالهم، فلا تنمية ولا تقدم اقتصادي ولا تعليم مشرف ولا فرص عمل بل فقر وإفقار ولقمة مغمسة بالدم والذل بينما الغرب والصهيونية لهم المغانم من الثروات العربية فيما المواطنين العرب لهم الفقر والفاقة.[٥]

---

[٢] –د.عبد العليم محمد،الثورة المصرية بين المرحلة الانتقالية والقضية الفلسطينية،القاهرة،مركزالاهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، ط١، ٢٠١٢،ص٣٢.

[٣] –بي.سي سميث،كيف نفهم سياسات العالم الثالث:نظريات التغيير السياسي والتنمية،ترجمة خليل كلفت،القاهرة،المركز القومي للترجمة،ط١، ٢٠١١،ص.٧٨

4–Hamed Dabashi,The Arab Spring:end of Postcolonialism,London,Dar–Zed,2012,pp22–58.

[٥] –ميغيل أوريان وجوسيبا فيرناندیث وكارلوس سيفيا،احتلوا العالم،مدريد،دار النشر الاسبانية،٢٠١١،عرض حاجي ولدداده،صحيفة المؤتمر الإربترية في ٢٦شباط٢٠١٢.

وكما كان للعوامل الاقتصادية دور فقد كان للعوامل الاجتماعية دور مهم أيضا في الدفع باتجاه إطلاق هذه الثورة، فالعالم العربي يتميز بواحدة من أعلى معدلات النمو السكاني في العالم اجمع مع هجرة متزايدة إلى المدينة من الريف حتى وصلت إلى ما يقارب ٦٠% من الحضر، والمجتمع العربي مجتمع شاب حيث يبلغ المتوسط العالمي لمعدل العمر ٢٨ عاما في حين يبلغ المتوسط العربي لمعدل العمر ٢٢ عاما. ناهيك عن اختلال سكاني كبير، يتفاقم يوما بعد يوم، وينذر بمخاطر مصيرية تتمثل في وجود كثافة سكانية عالية، في دول عربية ذات مصادر اقتصادية وموارد مالية محدودة، مثل مصر واليمن والسودان في حين تقوم الأقطار العربية ذات الكثافة السكانية المتدنية والغنية مثل دول الخليج بجلب حاجتها من العمالة من الأسواق الآسيوية وبأعداد كبيرة جدا، كما لم تنجح الأنظمة العربية في حل مشكلة الأمية التي بلغت ما نسبته ٤٠% ومعدلات قراءة وكتابة منخفضة، ومن الناحية الصحية فإن الخدمات لا ترقى بمستواها إلى الحد الأدنى من احتياجات السكان، وتنتشر في كثير من الأماكن المياه غير الصالحة للشرب، كما أن الأنظمة التي سخرت أجهزة الدولة لخدمتها ولم تبن أجهزة الدولة المدنية بل عززت البنى الطائفية والجهوية والقبلية لإضعاف المجتمع ورفعت حالة الشعور بعدم الأمان، ففي الوقت الذي كانت الجماعات الأولية هي الملاذ الآمن للناس إلا أن ذلك لم يلغ التوق الكبير للمؤسسات والمجتمع والدولة المدنية.[٦]

لقد عملت السياسات الرسمية على رفع درجات التهميش للكثير من الفئات العريضة وزادت حدتها سواء كانت للفقراء أو الناس في الأطراف أو المرأة أو الطفل وبالتأكيد الشباب فعززت الشعور بالاغتراب والإحباط، حيث اهتمت الأنظمة العربية بالمراكز وخاصة العواصم وأهملت الأطراف فكانت أعين الأمن على المراكز وعلى القوى السياسية التقليدية وأحزاب المعارضة ونشطاءها حيث اشتدت الانتهاكات بحق وكرامة المواطن بشكل مستمر وبإشكالها المختلفة وعلى كافة المستويات وبحق غالبية الفئات حيث التعذيب والقمع جزء من السياسات المعتمدة لأجهزة الأمن في العالم العربي، وزد على ذلك أن الأنظمة والأسر الحاكمة عززت أو أغمضت العين عن المحسوبية والواسطة والفساد حتى أصبحت السمة الدائمة للأنظمة الحاكمة.[٧]

لقد نجح الشباب في تسخير الأدوات التي وفرتها التكنولوجيا وثورة الاتصالات من مواقع الكترونية سواء الفيس بوك أو تويتر أو البريد الالكتروني والشبكة العنكبوتية وما وفرته من إمكانيات تواصل ومعلومات والية للتنظيم بالإضافة إلى سهولة استخدام المحمول كوسيلة اتصال ووسيلة توثيق مصور ،لقد كانت الثورات والانتفاضات في مرحلة سابقة تستخدم جريدة الحزب في معظم الثورات أو المنشور الذي كانت أداة التنظيم الأساسية في الانتفاضة الفلسطينية مثلا واستعاضت عنه بما وفرته التكنولوجيا من وسائل أكثر فاعلية وسرعة وقدرة على الوصول لأكبر قطاعات من الناس بغض النظر عن الجغرافيا مما فتح الباب للتواصل مع الثورة والثوار وإعطائهم بعداً عالميا من حيث التداخل والتواصل ونقل المعلومة والخبرة والرأي.[٨]

كما دخل الإعلام العربي مرحلة جديدة في السنوات الأخيرة حيث لعبت الفضائيات وخاصة الجزيرة دورا هاما في إثارة العديد من القضايا وتقديم الكثير من الآراء والوجوه والمعلومات التي اعتبرت على القائمة السوداء للأنظمة مما فتح افقاً إعلاميا جديا ساهم في تقديم معلومة جديدة للجمهور في العديد من المحطات ومنها الثورة الحالية من حيث إبقاء

---

[٦] –خوان غويتصولو، الربيع العربي: الإسلام والعرب والديمقراطية، ترجمة عبدالرحمن بن الأحمر، السعودية، منشورات الحياة، ط١، ٢٠١١، ص٨٨.

[٧] –د.حلمي محمود القاعود،عواصف الربيع العربي:محاولات اجهاض الثورة،القاهرة ،مكتبة جزيرة الورد،ط١، ٢٠١١،ص ٢٣.

[٨] –علي حرب،ثورات القوة الناعمة في العالم العربي،بيروت،الدار العربية للعلوم.ناشرون،ط١، ٢٠١١،ص ص ٦٧–٩٣.

حالة الحماس وتوفير غرفة عمليات على مدار الساعة تستخدم في تغطية خبر الثورة والثوار وفي توصيل رسائلهم وفي نفس الوقت رفد الثورة بالرأي الاستشاري للعديد من المفكرين والساسة والنشطاء.

ثانيا:آليات بلورة التغيير أو الشروع به(الإبداع الخارجي من أجل تمكين التغيير):

تُجمع الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة على ضرورة أن تتغير الأوضاع في العالم العربي حتى لا يظل على هامش التطورات العالمية.

لكن تصوّر هذا التغيير كان دائما يختلف من بلد إلى آخر وحسب ما تمليه المصالح الإقليمية والدولية. ثم جاء ١١ أيلول٢٠٠١ وأصبح التغيير إملاءً أمريكياً، على الطريقة الأمريكي، لذلك صرح الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن في ٢٤شباط ٢٠٠٢ قائلاً: "من أجل الإنسانية قاطبة، يجب أن تتغير الأوضاع في الشرق الأوسط" .[٩]

كما تعد كلمات كولن باول أمام لجنة الشؤون الخارجية في الكونغرس الأمريكي يوم ٦ شباط ٢٠٠٢، الأوضح في مسألة إصرار إدارة بوش على إجراء تغييرات تتلاءم مع السياسة الأمريكية ومصالحها البعيدة والقريبة على السواء. "[١٠]

ويطرح مثل هذا التأكيد تساؤلات شتى، لعل أبرزها، ماذا يعني الأمريكيون بالتغيير الجذري في العالم العربي والشرق الأوسط برمته، وما هي الآليات المتوفرة لدى الإدارة الأمريكية لإجراء التغيير المنشود؟

من المنظور الأمريكي، تُعد منطقة الشرق الأوسط بعيدة تماما عن الأسس التي قامت عليها الحضارة الأمريكية خاصة والغربية عامة، ومثل هذا الاختلاف في حد ذاته ليس مبررا للقلق. فلمدة طويلة تعايشت السياسة الأمريكية مع هذه البيئة، واستفادت منها كثيرا وما زالت، ولكنه . أي هذا الاختلاف الحضاري والقيمي . تحول من وجهة النظر الأمريكية بعد ١١ أيلول٢٠٠١ إلى مصدر تهديد خطير بعد أن وفّر بيئة تنتج الإرهاب والعنف والدعوة إلى الجهاد ومنازلة الحضارة الغربية.

ومن ثم، بات العمل على محاصرة هذا التهديد يُمثل أولوية قصوى، وهو ما لا يأتي إلا عبر تغيير أسس الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لأهل هذه المنطقة، وبما يترتب عليه توافق تام مع أسس الحضارة الأمريكية والغربية.

ويمكن القول، إن هذا الاستنتاج الذي توصلت إليه المؤسسة الأمريكية الحاكمة بفروعها السياسية والإعلامية والأكاديمية لم يكن نتاج بحث متعمق في الخصائص الجوهرية للعالم العربي والإسلامي عامة، وعلاقتها بالهجوم على نيويورك وواشنطن، وحدود المسؤولية التي تتحملها السياسة الأمريكية نفسها عن مشاعر العداء التي تموج لدى قطاعات عديدة في المنطقة، وإنما كان نتيجة تصورات ثابتة وسابقة لأحداث ١١ أيلول٢٠٠١.

كل ما في الأمر، أن هذه التصورات وجدت فرصتها في الظهور والتعبير عن ذاتها عمليا، والتحول إلى سياسة عامة تلتزم بها المؤسسة الحاكمة لاحقا. ونتيجة لأن الموقف الأمريكي قام على اعتبار أن الآخر ينطلق من موقف خاطئ تماما، فإن الوضع يتطلب تصحيحا من خلال تغيير هذا الآخر، أي الشرق الأوسط جذريا، وليس تغيير السياسة الأمريكية نفسها، أو حتى الجمع بين أسلوبين من التغيير، في الآخر وفي الذات معا.

بعبارة أخرى، إن التغيير المطلوب أمريكيا يجمع ما بين السياسي والثقافي القيمي والديني والاستراتيجي في آن واحد معا، وهو ما ظهر وتحول إلى أحد ثوابت الخطاب السياسي الأمريكي منذ ١١ أيلول٢٠٠١.

---

[٩] –نقلاً عن صحيفة الشرق الأوسط السعودية في ٢٥ شباط ٢٠٠٢.

[١٠] –نقلاً عن :بوب وودورد،خطة للهجوم،ترجمة فاضل جكتر،ط١،السعودية،مكتبة العبيكان،ط١، ٢٠٠٤،ص٦٢.

كذلك قارن مع:د.وائل محمد إسماعيل،رقعة الشطرنج الشرق أوسطية،بغداد،دار الرواد المزدهرة،ط١، ٢٠١١،ص٢٨–٣٣.

ويمكن عدَّ لحظة وصول الرئيس(باراك اوباما) للرئاسة في ٢٠ كانون الثاني ٢٠٠٩ ورفعه شعار التغيير منذ حملته الانتخابية للرئاسة الأمريكية في عام ٢٠٠٨. البداية الأولى لتجسيد التغيير في العالم على صعيد السياسة الخارجية الأمريكية،ومنه عالمنا العربي، على الرغم من إن البعض يعود بالمخطط إلى نهاية الحرب الباردة وحاجة الولايات المتحدة لضمان أمن "إسرائيل" وفرضه على المنطقة عبر(تسيّد إسرائيل عليهم).[١١]

إلا إن ما يهمنا وما بعد المرحلة الأساسية والانتقالية للشروع بهذا المخطط في عهد إدارة الرئيس(اوباما) إذ شهد التنظير السياسي تمثيل واضح له على الأرض عبر آليات وبرامج وخطط أحدثت التغيير وكأنه لعبة دومينو مترابطة في المنطقة.

١-وثائق ويكيليكس والبدء في التغيير.

٢-الشفافية وحرية الوصول للمعلومات.

١-وثائق ويكيلكيس والبدء في التغيير: بين قدرة قادر أم لحظة خطط لها يكشف لنا (جوليان آسانج) مدير موقع وثائق ويكيليكس(الناشط الإعلامي الاسترالي الجنسية) وتثار حوله الانتقادات لكشف المراسلات الدبلوماسية بين الولايات المتحدة والرؤساء العرب، وبتوقيت يتساءل الكل حول الغرض منه، وتستمر الانتقادات له لا سيما بعد أن كشف ملفات الفساد للرؤساء والملوك العرب ودول شرق أوسطية، لكنه لم يثر أية معلومة ذات صبغة إستراتيجية تتعلق بالولايات المتحدة والمملكة المتحدة أو استراليا في ما عملوا من فساد أثناء غزو العراق ٢٠٠٣.

ومما يلفت للنظر إن ثمار التغيير التي بدأت في تونس كانت على المعلومات التي أثارتها الوثائق التي بدأت في نفس غمار التغيير كانون الأول ٢٠١٠[١٢]، حول ملكية زوجة الرئيس (زين العابدين بن علي) وأمواله هو، وكذلك أقارب من أسرة زوجته(ليلى الطرابلسي) وكذلك في مصر ما أثارته عن معلومات فساد بملكية زوجة الرئيس (حسني مبارك) ونجليه (علاء وجمال) وحاشيته وأركان حزبه ، والحال نفسه حول ليبيا وما أثارته حول فضيحة صرف ابن العقيد(ألقذافي) (سيف الإسلام) لمطربة أجنبية مبلغ أثناء حفلة لها يصل إلى نصف مليون دولار، والحال نفسه حول اليمن ودول الخليج العربي[١٣].

فهل كان ذلك من فراغ، علما إن تلك المعلومات أثارت ما أثارت وهيجت الرأي العام وبتفعيل الماكينة الإعلامية الأمريكية والغربية أحدثت إسقاطات قوية أنتجت سيناريوهات التظاهر من اجل الرفض والتغيير.

والكلمة تتكون من جزأين الأولى وهي (wiki) في إشارة إلى برنامج الويكي التقني والجزء الأخير هو ترجمة حرفية للفظ اللاتيني (leaks) أي تسريبات، إن برنامج الويكي هو برنامج يعتمد على تقنية الويكي وهي مسئولة عن إدارة محتويات الموقع الالكتروني، ولهذا التطبيق ميزتان نسبيتان على الموقع الالكتروني التقليدي، فهو يسمح للزائر(أو من يصرح لهم) بتعديل محتويات الموقع من خلال زيارته عن طريق برنامج المتصفح العادي.

وكذلك إمكانية إدراج رابط عن طريق تحويل كلمة في النص إلى رابط وهذا الرابط يكون صفحة لم تنشا بعد وقد تنشا في المستقبل، وبشكل عام هو تطور لظاهرة القرصنة الالكترونية hackers ودشن العمل به عام ٢٠٠٧ ، إلا انه لم

---

[١١] – د. محسن احمد الخضيري، إدارة التوتر، ط١(القاهرة، مكتبة إيتراك للطباعة والنشر، ٢٠٠٩) ص ص ٣٢-٣٤.

[١٢] – علما إن موقع ويكيليكس أسس عام ٢٠٠٧ ، ومنذ ذلك الحين بدا العمل على نشر المعلومات ، وخوض الصراعات والمعارك القضائية والسياسية من اجل محاربة المبادئ التي قام عليها، وأولها مصداقية وشفافية المعلومات والوثائق التاريخية وحق الناس في خلق تاريخ جديد.

[١٣] – إيمان رجب، العراق في تسريبات ويكيليكس،القاهرة،مجلة السياسة الدولية،ع١٨٣،كانون الثاني٢٠١١، ص ص ١٨٦ – ١٩٠.

يعرف إلا عام ٢٠١٠ لكشفه معلومات عن حرب أفغانستان وحرب العراق والمراسلات الدبلوماسية الأمريكية في تشرين الثاني ٢٠١٠.[١٤] لذلك اعتبرت هذه التسريبات لاعب افتراضي يلعب دوره في التغيير في المنطقة.

وحقيقة إن نقل المعلومات من خلال وثائق لمراسلات دبلوماسية، أو تصريحات مسئولين أو تقارير لا تعني الحقائق الدامغة الكلية ١٠٠%. فالبرقيات والتقارير والتحليلات كلها يجري نقلها من خلال القائم بكتابة التقرير أو التحليل أو القراءة الخاصة للدبلوماسية، أو ما يعرف بالقراءة ما بين السطور لوثيقة معينة.

فمئات الآلاف من الوثائق والبرقيات الدبلوماسية نشرها موقع ويكيليكس الذي يديره الناشط الإعلامي الاسترالي (جوليان آسانج) أثارت حفيظة غالبية دول العالم وأغضبت الولايات المتحدة الأمريكية، قبل إن تحرج معظم أصدقائها وعدداً من خصومها، ما جعل وزير الخارجية الايطالي يصفها بالحادي عشر من أيلول في الحقل الدبلوماسي هذه المرة،[١٥] إذ نشر الموقع أطنانا من الوثائق والمراسلات والبرقيات السرية، التي تفضح الكثير من المعطيات والوقائع حول الحرب في كل من العراق وأفغانستان وحول السياسة الخارجية لأمريكا وفرنسا وبريطانيا وروسيا والصين وحتى إيران ودول الخليج العربية.[١٦]

ميزة الموقع أو شعاره(من اجل عالم بلا أسرار) يديره أشخاص متفرغين لهذا العمل الشاق لا يزيد عن خمسة وخلفهم مئات المثقفين والمفكرين والخبراء في أوربا وأمريكا واستراليا وجنوب أفريقيا.

(برادلي ماينغ) المعتقل بتهمة تسريب ربع مليون مراسلة قصيرة إلى الموقع خدم في الجيش الأمريكي في العراق وكان يعمل في وحدة المعلومات في الجيش الأمريكي، وتعلم القرصنة على المعلومات من أصدقاء له، واعترف بتسليم ٢٦٠ ألف وثيقة عن الدبلوماسية الأمريكية لـ(جوليان آسانج) صاحب الموقع.[١٧]وقد أثار الموقع وما سربه من معلومات الأحداث والثورات في المنطقة، سواء على مصر وتونس والجزائر وليبيا ودول الخليج العربي والعراق وإيران ودول أوربية وآسيوية ودول كبرى.

لذلك عدَّ البعض نشر تلك الوثائق بمثابة ((الفوضى البناءة أو الخلاقة بوسائل جديدة)) لما أحدثته من تغيير في منطقة الشرق الأوسط،[١٨]والولايات المتحدة وراء تهريب الوثائق ، فهناك ضغوط على الحلفاء كشفتها الوثائق، كما هنالك ضغوط على الخصوم، والاختلاف هو في الشدة والنوع ، وهو ما عكسته الوثائق السرية، أي هناك وثائق رسائل وهناك وثائق فضائح (ضغوط).[١٩] فمن الوثائق ما هيج الرأي العام المصري المفعل بتأثير الإخوان في مصر، إذ نشرت الوثائق لقاء للسفيرة الأمريكية في القاهرة (مارجيت سكوبي) مع وزير الداخلية السابق (حبيب العادلي) وطالبته بالإفراج عن قيادات جماعة الإخوان ، فرد العادلي بالرفض لان الجماعة تتلقى تمويلا من الخارج ، ثم استطرد قائلا إنها تتلقى تمويلا من فرنسا.[٢٠]

---

[١٤] – رنا ابو عمرة، ويكيليكس :نموذج لواقع إعلامي جديد،القاهرة،مجلة السياسة الدولية،ع١٨٣،كانون الثاني٢٠١١،ص ص ١٨٠– ١٨١ .

[١٥] – موسوعة ويكيليكس اكبر الفضائح عبر التاريخ ، المجلد الأول ط١ (لبنان، مركز الدراسات والنشر، ٢٠١١) ص ص ٧–١١ .

[١٦] – كشفت الوثائق بخصوص العراق وأفغانستان ، إن كل ما جرى حولهما كان افتراء والقصد من غزوها كان الهيمنة على تلك المنطقة والحصول على مكاسب إستراتيجية من وراء احتلالهما. انظر إبراهيم عجوة، وثائق ويكيلكيس وحروب التشهير، قناة الجزيرة الوثائقية، من ٢٠١٠/١٢/٧ ، الساعة ١٥:٤٨ مكة المكرمة .

[١٧] – المصدر نفسه، ص ١٢ .

[١٨] – إبراهيم عجوة، وثائق ويكيلكيس وحروب التشهير ، مصدر سبق ذكره .

[١٩] – المصدر نفسه.

[٢٠] – صحيفة المصري اليوم المصرية، ٦/٦/ ٢٠١١ .

وهنا بيت القصيد من هذا النشر، إذ يعني إن الإدارة الأمريكية أرادت مد مقتربات مع الإخوان قبل التغيير، وأرادت فضح سياسة (مبارك) إزاءهم لذا فان عملية نشر وتسريب تلك الوثائق قد تم بمعرفة مسبقة من الحكومة الأمريكية لأسباب منها:

أ-إن كل ما يمت لإسرائيل ويحرجها لم يتم ذكره وهو أمر محير ، هل تم إسقاطها عمدا أم انه لم يتم الوصول إليها أصلاً.

ب-إن هذه الوثائق اغلبها مفبركة أصلاً، القصد منها إحراج المقصودين بها لإشعال فتنة عليهم وإثارة الرأي العام حولهم.

ج-إشغال الرأي العام الدولي والمحلي عن القضايا الحساسة التي تهز الحكومة الأمريكية(الاقتصاد- الحروب- الضعف السياسي الواضح لأوباما) .

د-ضرب الدول العربية بعضها ببعض.

هـ-وإثارة حالة من الشك والريبة من الناحية السياسية على الأقل في العلاقات بين الدول.

و-إظهار أمريكا بوجه البريء أو على الأقل تحسينها حيث إن الحكام الآخرين هم المنافقين والأفاقين.

وأخيراً أعلن مؤسس موقع ويكيليكس جوليان آسانج في كلمة ألقاها الخميس ٢٠كانون الأول الحالي ٢٠١٢متحدثاً من سفارة الإكوادور في لندن حيث يقيم كلاجئ منذ ستة أشهر إن موقعه المتخصص في كشف تقارير سرية سينشر في العام ٢٠١٣ مليون وثيقة.

وحسب وكالة الأنباء الفرنسية،فقد قال آسانج بلهجة تحد أمام حوالي مئة من أنصاره إن"العام المقبل سيكون حافلاً أكثر من ٢٠١٢"وأضاف:"ويكيليكس يحضر لنشر مليون وثيقة،تشمل كل بلدان العالم،كل بلدان هذا العالم".[٢١]

٢-الشفافية وحرية الوصول للمعلومات :مصطلح الشفافية ظهر في بداية التسعينات وزاد في أواخره ليطفوا على أولويات تطبيق الديمقراطية في الوطن العربي عبر آلية الشفافية وحرية الوصول للمعلومة، وقامت مؤسسات لا بل حتى المنظمة الدولية الأمم المتحدة أقرت ذلك الحق كان سببا في تلاشي وانهيار المنظومة السوفيتية حين فهم وأراد الرئيس السوفيتي(ميخائيل غورباتشوف) تطبيقه عبر ما عرف (بالغلاسنوست) باللغة الروسية، تعني المكاشفة والمصارحة ومزاوجة مع فلسفته لإعادة البناء (البيرسترويكا)، وكان فاشلا في التعاطي مع المفهومين إزاء مجتمع بني على الحكم من القمة وعاش على الاستبداد والفردية لا في الحقبة الشيوعية التي تمتد سبعة عقود وإنما بالحقبة القيصرية التي تمتد لأكثر من قرن، وكأنه مخطط أيضا وسانده الغرب بذلك وآل مآل إليه من تناثر للاتحاد السوفيتي الدولة العظمى جيبوليتكياً وعسكرياً وسياسياً فقط إذا ما أقررنا إنها كانت منهمكة اقتصادياً.[٢٢]

والشفافية هذا المصطلح (Transparency) تعرف على إنها الحالة التي يمكن الرؤية من خلالها وفقاً لقاموس Long man Dictionary أما قاموس اوكسفور فعرفه على ما يمكن استيعابه بسهولة وفهمه او ما يمكن استيعابه بسهولة واكتشافه.[٢٣]

أما آخرين فيعدون الشفافية بأنها الحكم الشفاف، أي إن المسئولين الحكوميين يعملون بشكل علني مع ضرورة معرفة المواطن بالقرارات التي يتخذها المسئولون،[٢٤] ولممارسة الشفافية وتكريسها داخل الدول يقتضي اخذ الأبعاد التالية:

---

[٢١] -نقلاً عن صحيفة القدس اللندنية في ٢٠١٢/١٢/٢١.

[٢٢] – للمزيد حول الموضوع. محمد حسنين هيكل، الزلزال السوفيتي ط١ (القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٢).

[٢٣] – د. نبيل محمد الخناق، الشفافية التنظيمية، (بغداد- مطبعة الرفاه، ٢٠٠٦) ص ١٣ .

[٢٤] – المصدر نفسه ، ص ١٤ .

أ–سيادة القانون.

ب–الفصل بين السلطات.

ج–احترام حقوق الإنسان.

د–حق وحرية الحصول على المعلومات.

هـ–ممارسة وتكريس الشفافية في إدارة وتدبير الدولة والمجتمع.

و–توفير شروط المساءلة.[٢٥]

وفي هذا الاتجاه أزيحت دول ، وتم إشاعة الفوضى في دول أخرى، تحت شعار حرية المعلومات والشفافية. فيما مورست ضغوط على أخرى لإصدار نصوص دستورية أو تشريعية تقر بحرية الوصول إلى المعلومة، والشفافية في الحكم والإدارة. وتم ذلك ليس في آسيا بل في أفريقيا، وأمريكا اللاتينية ودول الاتحاد السوفيتي السابق، وعلى سبيل المثال في نيجريا مثلا أقر الرئيس النيجيري(غودلال جوناثان) قانون حرية المعلومات ، مانحاً النيجيريين حق مكافحة الفساد وإخضاع المسئولين للمسائلة وفق أصول الشفافية والمسائلة، وتم ذلك مؤخرا في ٢٩ أيار ٢٠١١ .[٢٦]

وقد لعبت العديد من الحكومات خاصة في الدول المتخلفة دورا رقابيا على حركة تدفق المعلومات عبر الحدود التي نتجت عن التقدم التكنولوجي الهائل في مجال الاتصالات سواء عن طريق شبكة الانترنيت أو الهواتف المحمولة أو الفضائيات المختلفة، حيث ترى تلك الدول ضرورة ضمان حقوق الإنسان الرقمية وحرية التعبير وهذه الحقوق هي :–

أ–الحق في حرية التعبير.

ب–حق الاتصال المفتوح بالانترنيت.

ج–حق الاتصال غير المقيد (حرية التعبير).

د–الحق في شبكات مجتمعية قوية.

هـ–الحق في الخصوصية عبر الانترنيت.

و–الحق في مواقع عامة على الشبكة الدولية،

ز–الحق في خدمة رقمية عامة.[٢٧]

وبالتالي فان ذريعة الأمن التي تتخذها الحكومات في الدول النامية سبباً لقمع حرية التعبير عبر وسائل الاتصالات المختلفة، تعد ذريعة واهية. إلا إن من الجدير بالذكر إن لا ننسى إن أغلب تلك النظم قد وفرت لها الولايات المتحدة ودول غربية مساندة لها من أجل القيام بذلك إلا أن الجديد في النظام العالمي الحالي هي سبب في التغير الآن إزاءها وإزاء سياساتها.

ثالثاً:آليات بناء التغيير(صناعة التغيير):

ونقصد بها تلك الآليات التي من خلالها تجسد التغيير بشكل فاعل وظاهر ومهيمن.ومن أبرز تلك الآليات،هي:

١–آليات التغيير الناعمة (اللينة):وهي الوسائل والأدوات التي تستخدمها الوحدات الدولية في تفاعلاتها الديناميكية في النسق الدولي لتحقيق المكاسب والأرباح الآنية والمستقبلية ولكل بعد دولي آلية معينة تحددها الزمان والمكان بما يلاءم والظروف المواتية للوصول إلى الهدف الشامل للاستراتيجيات العليا.

---

[٢٥] – قارن مع د، نبيل محمد الخناق، الشفافية التنظيمية ، المصدر نفسه، ص ص ٢٨– ٣٠ .

[٢٦] – قانون حرية المعلومات نصر للديمقراطية، ١ حزيران ٢٠١١. في الموقع الالكتروني:

http;/www.ifex.org ,Nigeria/2011/oG/01..

[٢٧] – انظر وثيقة ((إعلان الديمقراطية الرقمية)) على الموقع ، مركز الديمقراطية الرقمية، على الانترنيت.

ومن غير المنطقي القول بان مثل تلك السياسات تنطبق على جميع الدول فالدول المتقدمة والكبرى هي اقرب ما يكون لاستخدام آليات التغيير لما تملكه من مقومات القوة والقدرة على التأثير وبالتالي التوظيف للمتغيرات المتاحة ،وذلك لاعتبارات مُسَلم بها بان التغيير مطلباً عالمياً مستمر وتحمل رياحه أنسام التحول والتجدد والتبدل والتحسن والتعديل التي تصب في بوتقة واحدة (بوتقة التغيير).

٢-آليات التغيير الخشنة (الصلبة): وهي التي تستند إلى القوة المفرطة في تحقيق غاياتها ومآربها،وايضاً هي من أبرز وسائل الدول الكبرى في العلاقات الدولية.

٣-آليات التغيير الذكية (الجمع بين القوتين):وهي محصلة تسخير وتوظيف مقومات القوة اللينة والصلبة.

وتعد الثورات الغير مخططة أكثر التصاقا بالتغير الاجتماعي ، التَّغير الاجتماعي بما هو آلية لا شعورية تلقائية تعمل على حماية المجتمع وحفظه بتغيير آلياته وبنيته للخروج من الوضع القائم الذي لا يتلاءم مع مجتمع اليوم لتتكيف مع المعطيات والظُّروف المستجدة عليه فإنَّه غير مخطَّطٍ مسبقاً، وإنَّما تتحرك آلياته وفق الظُّروف والمعطيات والشُّروط الجديدة التي تطرأ عليه أَو على أحد جوانبه أَو عناصره. وهذا ما نستطيع أن نلصقه في الشرارة الأولى للثورات وهي ثورة تونس التي كانت تعبر عن التغير الاجتماعي .

ويعد الفاعل الرقمي في ظل العولمة بتقنياتها وتحولاتها فاعل جديد يمثله نموذج الإنسان الرقمي، حيث بدا يتصدر بشكل جلي وكبير منذ عقدين، الذي أسهم في تغيير الواقع، جعلت من القوة الناعمة سياسة تقوم عل اللاعنف بعد فشل أو تراجع العنف على الرغم من إن العنف يولد العنف لكن في جانب كبير منه يعتمد على القوة الناعمة في التحريض والدعوة للتغيير وبالتالي إجبار القادة والحكام بمختلف عناوينهم على التغيير سياسيا واجتماعيا واقتصاديا في ظل عصر القوة الناعمة الفائقة لأنها أقوى من الأجهزة الأمنية القمعية والمخابراتية ، وهي عكس الثورات السابقة القائمة على الجريمة والعقاب وعلى القوة الخشنة وهي تشبه ما تكون بالمحاكاة الصورية . وعلى الرغم من الآليات الناعمة هي فاعل من صنع القوى الكبرى إلا إن هذا لا يعني إن أداة غربية مسيرة فهي سلاح ذو حدين من الممكن استثمارها في تغيير الذات والحال على المستوى الاجتماعي للفرد وعلى المستوى السياسي للدولة .

وعلى سبيل المثال نجد إن تدفق الثقافة الأميركية إلى المجتمعات الأخرى لا تكون بدون تغيير، فقوائم الوجبات (الماكدونالدية) للأكلات السريعة منتشرة في أماكن مختلفة من الصين، والأفلام الأمريكية تترجم بلهجات صينية مختلفة وتدبلج لتعكس التصورات للرسالة التي يجري ترجمتها ، وأكثر ما تكون المؤسسات السياسية أكثر من الثقافة الشعبية مقاومة للبث العابر للقومية السلبي والايجابي منه، فعلى الرغم من إن الطلبة الصينيين قد أقاموا في ساحة "تيانانمين في سنة ١٩٨٩نسخة من تمثال الحرية الأميركي ، فانه من المؤكد إن الصين لم تتبنى ذلك وفق ما تطرحه المؤسسات السياسية الأميركية للحرية .ويشدد "جوزيف ناي (الابن) "على إن العولمة أميركية المركز، بمعنى إن جزءا كبيرا من محتويات الشبكات المعلوماتية العالمية يتم تكوينه في الولايات المتحدة وهو ما يعزز الآلية الناعمة الطرية للسياسة الأميركية وبالتالي قدرتها السحرية الغير محسوسة التي تستهوي القلوب والعقول لا يمكن مقاومتها بالمنع أو الحرمان أو التشويش .[٢٨]

ولعل من أهم أدوات آليات التغيير الناعمة هي الدبلوماسية العامة بين الوحدات الدولية في تفاعلاتها التعاونية والتنافسية (الصراعية) ، فان الدول التي لها علاقات مختلفة في مجالات متعددة نجد إن الدبلوماسية تقوم إلى حد ما إلى التعاون ويشكل التغيير وفق الدبلوماسية حسب المواقف والتجاوب ليشمل تقبل القيم الحضارية والإنسانية للتعاون ، أما

---

[٢٨] –جوزف أس ناي،مفارقة القوة الأمريكية،ترجمة محمد توفيق البجيرمي،السعودية،مكتبة العبيكان،ط١، ٢٠٠٣،ص١٢٤.

في حالة الدول التي تنتاب سياستها نوع من التأزم أو التنافس أو حتى الصراع فان هذا لا يعني إن الدبلوماسية كآلية ناعمة طرية سوف تتوقف حيث يبدأ الصراع أو التنافس كأن يكون التحدي اقتصادي أو عسكري أو سياسي ، فان للخطاب الرسمي السياسي أثره الايجابي بان يجعل صانع القرار يخفف من حدة القلق والتخبط في فهم مصدر المعلومات ،وبالتالي اخذ المعلومات المتدفقة إلى مؤسسات صنع السياسة الخارجية بنحو ايجابي وهو تأثير مهم يجعل من النظام الدولي أكثر استقرار واقل حدة على الرغم من "البراغماتية" القائمة على الكلفة والمنفعة بين الدول والفواعل الدولية لتحقيق مصالحها .[٢٩]

وبسلسة من الآليات تلك باتت الدول التي نجح فيها التغيير أو المرشحة على أعتاب معارك داخلية،مع إن معاركها الخارجية بتمكين وتسكين ذات القوى الخارجية الصانعة للتغيير،

رابعاً:المعارك والتحديات اللاحقة للتغيير:

يتنبأ العيد من الكتاب والمراقبين بمعارك عديدة بعد التغيير في العالم العربي،ولعل البارز منها،هو:

١-معركة الثقافة:

فقد فرضت الانتفاضات الشبابية تغييرا هاما على المشهد الثقافي العربي بكامل دوله.فهو مشهد بائس جدا من أبرز تجلياته زيادة نسبة الأمية في غالبية الدول العربية، وتراجع الاهتمام بالكتاب، والمسرح، والفنون، ومختلف أشكال الإبداع.يضاف إلى ذلك غياب واضح لصحافة النقد مقابل حضور كثيف لثقافة الترفيه، والإخبار،وميل متزايد للتنظير والتعميم والتسطيح في مختلف المجالات. وإذا كان تعدد المراكز الثقافية في أي بلد عربي يعتبر عنصرا مساعدا لنشر الثقافة، فإن المشكلة تبرز بحدة أكبر حين تطغى ثقافة التبرير على ثقافة التغيير.فهيمنة الرأي السائد أو ثقافة التبرير في المجال الثقافي تقود حتما إلى البلادة الذهنية التي تلغي الإبداع الثقافي،وتحيل مثقف التبرير السلطوي إلى ببغاء يردد مقولات تراثية ليغرق في مديح الحاكم وحاشيته.وبالتالي، لا بد للعمل الثقافي الإبداعي من مؤسسات ثقافية ترعى ثقافة النقد والتغيير الجذري الشمولية لأنها مسألة في غاية الأهمية ولا يستقيم نشر الثقافة التغيير بدونها. وتحتاج ثقافة التغيير إلى تراكم طويل الأمد حتى تعطي ثمارها اليانعة بعد صراع تفاعلي بين التيارات المختلفة في داخلها .وليس المطلوب قمع ذلك الصراع بل الارتقاء به نحو مرحلة أرقى من التفاعل الإيجابي عبر الحوار المفتوح،واحترام الرأي الآخر،وتعزيز قيم الثقافة العربية.[٣٠]

٢-معركة البناء بدلالة الفوضى:

تضغط ديناميكيّةُ الأحداث، والتباسُ أفقها في الحراك الشعبيّ الضخم الذي تشهده تونس ومصرُ هذه الأيّام، على المحلِّل، وتجعله يواجه صعوبةً في استجماع التفاصيل، ونقصًا في تحقيق عناصر المقاربة الموضوعيّة.

فنحن عشنا مع تجربة تونس، ونعيش هذه الأيّام مع تجربة مصر، حركيّةً متسارعةَ الإيقاع لم نمتلكْ بعدُ الأدواتِ والآليّاتِ الدقيقة للبحث في معطياتها واستنتاج الأحكام والتقييمات من تفاعلاتها. وأيّةُ محاولةٍ لهذا الاستنتاج لن تكون سوى مجرّد انطباعاتٍ أوليّةٍ أو عاطفيّةٍ قد تجرفها سيولُ الأحداث الجارية، خصوصًا أنّ أحدًا لا يستطيع التنبّؤ بما ستؤول إليه الأمورُ في البلدين.

---

[٢٩] -سيف نصرت الهرمزي،آليات التغيير الناعمة(اللينة)،الحوار المتمدن،ع٣٦٩٤ في ٢٠١٢/٤/١٠.

٣٣-عادل الطريفي،أخوان الربيع العربي بين وعاظ السلاطين ودعاة الفتنة،القاهرة،ط١، ٢٠١٢، ص٦٦.

كذلك طالع:د.عبد الحسين شعبان،الشعب يريد...تأملات فكرية في الربيع العربي،الجيزة-وادي النيل،دار أطلس للنشر والإنتاج الثقافي،ط١، ٢٠١٢.

أنطلق هنا من مناقشة كلمة "الثورة" التي أُسهب في استعمالها لتوصيف الحراك الاجتماعيّ في كلا البلدين. وأتساءل: هل يشكّل ثورةً حقيقيّةً تحمل سمات الثورات التي شهدها التاريخُ الإنسانيُّ المعاصر؟ أمْ أنّه مجرّدُ انتفاضةٍ شعبيّةٍ تلقائيّةٍ في وجه الظلم، اتّخذ المجالَ العامَّ وسيلةً للتعبير عن أفقٍ سياسيٍّ واجتماعيٍّ راديكاليٍّ من دون الالتفات إلى حيثيّات السلوك الثوريّ التغييريّ؟.[٣١]

إنّ المتأمّل لبواعث الانتفاضة الشعبيّة في تونس ومصر يلاحظ أنّها محكومةٌ بصدقيّةِ وعفويّةِ الشباب القائمين عليها، والمغذّين بديناميّتهم لتفاصيلها اليوميّة. ويصرّ هؤلاء على أنّ حركتهم الاحتجاجيّة بلا لونٍ سياسيّ ولا طعم إيديولوجيّ ـ وهي ظاهرةٌ جديدةٌ في مجتمعاتنا العربيّة التي اقتصر دورُها على مباركة الثورات العسكريّة في خمسينيّات القرن الفائت وستينيّاته. لكنّ الشعب اليوم هو الذي يضغط على زناد التغيير. وهذا الوضع، بقدر ما أعطى مطالبَ الشعب زخمًا هائلاً، قد جعل الحركةَ الشعبيّة من دون رؤيةٍ سياسيّةٍ بديلةٍ قادرةٍ على تقديم برنامجٍ واضحٍ يشكّل أفقا للتغيير وملاذًا لتصريف الطموحات التي يحملها شبابُ تونس ومصر.

ومن نتائج غياب هذه الرؤية السياسيّة والبرنامج البديل للسلطة القائمة انحسارُ المطالب الشعبيّة وعودتُها إلى مربّع النظام القائم الذي يُنتظر منه أن يكون قوةً اقتراحيّةً لتدبير المرحلة الانتقاليّة. ومن شأن هذا المسار أن يلتوي على المطالب الشرعيّة لانتفاضة الشعب ويعرقل مسيرةَ التغيير الديمقراطيّ، أو بالأحرى يزيّفها من خلال الترويج لتغييراتٍ هامشيّة: مثل الدفع إلى إطلاق بعض الحريّات (كحريّة التعبير والتجمّع وتأسيس الأحزاب والجمعيّات) من دون ضماناتٍ يؤسّس لها التوقيعُ على عقدٍ اجتماعيٍّ جديد[٣٢].

وإذا تأمّلنا واقعَ التغيير السياسيّ في تونس بعد الانتفاضة، فسنخْلص إلى أنّنا لم نكن أمام تأسيس عقدٍ اجتماعيٍّ جديدٍ يؤشّر عليه سقوطُ نظامٍ بكامله وإقامةُ نظام جديد يمهّد لانتقالٍ ديمقراطيٍّ حقيقيّ، وإنّما كنّا أمام إسقاط رموز نظام، في حين استمرّ هذا الأخير في الوجود، بل كان هو المؤسس لمرحلةِ ما بعد زين العابدين بن عليّ.

وفي مصر تتكرّر الصورة، وربّما بالسيناريوهات ذاتها: حراك شعبيّ بعنفوان يستبق كلّ الخطابات والأفكار والاستعدادات عند النخب والأحزاب السياسيّة. وهذا ـ بالتالي ـ يؤزّم وضعَ الأحزاب "المعارضة" التي وجدتْ نفسَها غير قادرة على تدبير المرحلة بالكشف عن برامجها السياسيّة وقدراتها الاقتراحيّة، فظلّت متواريةً خلف شعارات الشباب الراديكاليّة تردّدها دونما قدرةٍ على تمثّلها في شكل برنامج أو رؤية سياسيّة. ولنتأمّل الآن التخبّط الذي تعيشه أطرافُ المعارضة المصريّة اليوم في تدبير اللحظة، على ما يتجلّى في البيانات المتعارضة والمتناقضة والتصريحات المتدافعة بدون رويّة ولا تبصّر.

إذن، نحن أمام علوّ سقف مطالب الجماهير من جهة، وأمام غياب قيادة قادرة على ترجمة مطالب الشارع إلى رؤيةٍ ثوريّةٍ تحدِّد معالمَ عقدٍ اجتماعيٍّ جديد وتعلن عن استعدادها لتسيير المرحلة القادمة ضمن مشترَكاتٍ تتفق عليها كلُّ مكوّنات الفعل الثوري ـ من شبابٍ وتنظيماتٍ وفعّاليّات مجتمع مدني. وهذا الغياب يُفرغ الحركات المجتمعيّة من مضمونها الثوريّ ويحصرها ضمن أدبيّات الانتفاضة الشعبيّة التي تبدأ تعبيرًا احتجاجيًا عن أوضاعٍ ما لتنتهي بتسجيل مواقفَ احتجاجيّةٍ تحتاج إلى دورةٍ زمنيّةٍ أخرى لاستعادة بريقها.

---

[٣١] –د.مصطفى عثمان إسماعيل،الربيع العربي ثورات لم تكتمل بعد،القاهرة،مكتبة مدبولي،ط١، ٢٠١١، ص٦٧. وعلى النقيض منه طالع:فؤاد السنيورة،الربيع العربي،بيروت،دار النهار للنشر،ط١، ٢٠١١.

[٣٢] –بارا ميكائيل،إعادة قراءة لثورات الربيع العربي،باريس،دار سيني،٢٠١٢،عرض:صحيفة الحياة اللبنانية ٢٦تشرين أول٢٠١٢.

إنّ سقوط فكرة الثورة، الجذريّة العميقة ذات البرنامج الإستراتيجيّ والتكتيكيّ، عن الحراك الاحتجاجيّ في كلٍّ من تونس ومصر يجعلنا نستفيق على وضعٍ غايةٍ من العقيد ملامحه الفوضى بدلاً من البناء[٣٣]:

أ-وضعٍ تحْكمه أجهزةُ نظامٍ قمعيٍّ تسلّطيٍّ تابع لقوًى أجنبيّة وخادمٍ لأجندةٍ خارجية.

ب-تَستكمل تأثيثَه أحزابٌ سياسيّةٌ "معارضةٌ" متهالكةٌ أغرت الشارع بفقاعات خطاباتها المتخشِّبة على مدار عقود، حتى إذا ما عرّتها الوقائعُ الجديدةُ لم تستطعْ أن تستر عوراتِها وهي تهرول على تيار نضاليّ لم تتحسّنْ كيف تشكَّلَ ولا من أين استحضر الشبابُ موادَّ تأسيسه.

ج-يقنن ويتأسس على خلفيّة قاعٍ اجتماعيّ كثيرًا ما وسمْناه بالسلبيّة والانعزال والاستسلام والتدجين، لكنّه يستنهض الهمم ويدفع بالحراك الاجتماعيّ إلى أقصى مداه[٣٤].

ولعل أدق وصف عن ذلك قدمه د.عبدالله فهد النفيسي في حوار تلفزيوني يوم٢٠تشرين الثاني٢٠١٢ في البي-بي-سي الناطقة بالعربية عن الأخوان المسلمين في مصر بأنهم مجرد"ظاهرة صوتية لا تصلح للبناء والاستقرار"ثم شبههم بسلاح المدفعية قادر على أن يهدم وليست لديه خبرة البناء.[٣٥]

٣-معركة الدستور:

تدخل ما تسمى بلاد الربيع العربي التي شهدت تغيرات أطاحت بأنظمتها الاستبدادية بعد حكم استمر عشرات السنين من القمع والظلم، تدخل هذه البلاد في معركة على صناعة الدستور الذي يمثِّل ورقة صناعة المستقبل؛ من أجل نفض الغبار المتراكم، والذي أعادها للوراء مئات السنين، وأدخلها في ركب الدول المتخلفة التي تعاني من أجل توفير أدنى متطلبات المعيشة لسكانها، رغم أنها تمتلك ثروات هائلة كانت من نصيب فئة صغيرة سطت على الحكم، وجمعت حولها حاشية فاسدة أورثت البلاد خرابًا مدمرًا[٣٦].

وكمثال على ذلك المعركة بين العلمانيين والإسلاميين الرافضين في مصر لخصومهم من ترتيب الدستور بما يحقق أهدافهم، فأساتذة وفقهاء القانون الدستوري يؤكدون أن الأبواب الخمسة الأولى المتعلقة بالحريات الأساسية في دستور ٧١ الذي سقط مع النظام السابق، كانت من أفضل الأبواب والمواد التي يمكن أن يحويها دستور في العالم، لكن هذه الأبواب من الدستور تحولت إلى مجرد حبر على ورق، بفعل شقيقاتها الخاصة بسلطات رئيس الجمهورية في نفس الدستور، والتي حولت الرئيس من بشر إلى فرعون ومن رجل دولة يحكم إلى مستبد يتحكم[٣٧].

٤-معركة الأيديولوجية:

إن ما شاهدناه لدى الشارع العربي يقدم لنا الانطباعات التالية:-

أ-إن فكرة البطل لازالت السائدة في البنيتين السياسية والاجتماعية لدى الشارع العربي،في العشيرة المسيطر شيخ العشيرة،وفي الطائفة شيخ الطائفة،والقبيلة شيخ القبيلة،والحزب الأمين العام،والدولة القائد الأوحد.مما يثبت إن العقلية العربية عقلية لم تعرف بعد المؤسسات،ولم تتشكل لديها الفكرة الجوهرية عن الدولة المدنية.

---

[٣٣] -د.مصطفى عيروط،ربيع عربي أم خريف عربي،عمان-الأردن ،ط١، ٢٠١٢، ص٥٦-٨٣.

[٣٤] -سهيل إدريس،الانتفاضات العربية وغياب مقومات الثورة الحقيقية،مجلة الآداب،المغرب،آذار٢٠١١.

[٣٥] -نص المقابلة مع د.عبد الله فهد ألنفيسي في ٢٠ تشرين الثاني ٢٠١٢ الساعة التاسعة والنصف مساءً بتوقيت بغداد.

[٣٦] -د.مهدي علي أبو فطيم،الربيع العربي،الثورات العربية في القرن الواحد والعشرين،بيروت،منشورات الحياة،ط١، ٢٠١١.

[٣٧] -سمر المقرن،ثورة شعب وثورة طائفة،السعودية-المنطقة الشرقية،دار الكفاح،ط١، ٢٠١١.

ب-إن مايدفع الولايات المتحدة والغرب وحلفائهم من دول الخليج العربي للتدخل في العالم العربي الآن،هو لملء الفراغ وإعادة هيكلة المنطقة بما يخدم توجهات قادة الرأسمال الاحتكاري العالمي،ومن ضمنهم الشريك الإستراتيجي في العالم العربي وهم حكام الخليج العربي.[٣٨]

٥-معركة البناء الاقتصادي والتنموي:

قدر المنتدى الإقليمي الخسائر الاقتصادية للربيع العربي بحوالي ١٢٠ مليار دولار خلال عامين،مشيرا إلى إنها مرشحة للزيادة في ظل تراجع الاستثمار الأجنبي المباشر في الدول العربية٢٤%.فيما يقدر الآخرون الخسائر بتريليون دولار إذا أضيف إليه حجم الدمار وتوقف الصادرات والموال المنهوبة والمهربة من أزلام النظم المنهارة.[٣٩] إذ أثرت الأحداث على السياحة والاستثمار والنشاط الاقتصادي،بجانب ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكية وانخفاض النمو العالمي.

٦-معركة حقوق الإنسان والتنشئة الاجتماعية:

وتتعلق بصورة أساسية بحقوق الأقليات الدينية والالتزام بالمواثيق الدولية بنبذ التمييز العنصري،فالواقع العربي المتحول سرعان ما تحول من انتحار الأفراد إلى انتحار الدول من خلال ضرب كل التزام معنوي أو قانوني بحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية.[٤٠]

التنشئة الاجتماعية من أهم معارك دول الربيع العربي ،فقد أعتاد أبناء تلك الدول لعقود طويلة على أنواع من القهر الفكري والاجتماعي والسلوكي،مما أدى إلى تكريس مفاهيم وعادات وتصورات وسلوكيات من الصعب التخلي عنها فجأةً.

الخاتمة:

إن قلة خبرة قوى الإسلام السياسي المشبعة بالثقافة الثيوقراطية في إدارة شؤون الدولة الحديثة وفي ظل ظروف المرحلة الانتقالية من النظام الديكتاتوري الشمولي إلى النظام الديمقراطي والتي تشهد فيها هذه البلدان والمجتمعات تحولات كمية ونوعية هائلة وسريعة غير مسيطر عليها في بناها التحتية والفوقية ، وتزمتها وبنوع من التطرف والتشدد بخطها الأيديولوجي الذي لا يقبل التعاون والتحاور والتعايش مع الآخر سوف تجعلها تخفق وتفشل في تحقيق أية إنجازات ومكاسب نوعية ملموسة لصالح شعوبها ،وهذا الفشل والإخفاق سوف يجعل الجماهير التي صوتت لها في الانتخابات لأسباب دينية أو مذهبية أو عشائرية أو مناطقية تتخلى عنها وتبحث عن البديل الذي يكون قادرا على تلبية متطلبات حياتها.

وفي خضم قيادة قوى الإسلام السياسي الفاشلة لبناء دولة المواطنة والقانون والمؤسسات الدستورية سوف يتم التأسيس لظهور وانبعاث تيار القوى السياسية الديمقراطية الليبرالية وتعمل على توعية الجماهير الرافضة لأي شكل من أشكال الدولة الدينية التي أثبتت عمليا عجزها وفشلها في تحقيق ما تطمح إليه من مرتكزات الحياة الكريمة وتعبئتها باتجاه بناء الدولة المدنية دولة الخدمات التي تحقق العدالة والمساواة لجميع مكونات الشعب على أساس الانتماء الوطني وليس على أي أساس آخر ، ومثل هذه القوى سوف تلتقي في رؤاها مع القوى الدولية التي تقود الحرب العالمية على الإرهاب وفق معادلات توازن القوى حول العلاقات الدولية المتوازنة بين الدول لضمان مصالح الجميع.

---

[٣٨] -د.عدنان عويد،الآيديولوجيا والوعي المطابق،سوريا،دار التكوين،٢٠٠٦،ص٢٢-٤٨.

[٣٩] -صحيفة الحياة اللبنانية في ٢٠١٢/٩/٤.

40-John R.Bradly,After the Arab Spring:How Islamists Hijacked the Middle East Revolts,U.S.A,Palgrave Macmilian,2012,pp.45-128.

إن الإنسان سيكون هو المسئول عن تشكيل المجتمع عقلا وثقافة ووعيا،وهو الكفيل بالتصدي لكل آليات التخريب والتدمير لوطنه، فإذا فقد الإنسان القدرة على إنتاج ذاته في إطار المسؤولية الاجتماعية العامة فان المجتمع يفقد مبررات النمو والتقدم. ويبقى المجتمع عاجزا بعجز الفرد عن استثمار طاقاته ومواهبه الروحية والعقلية ويتحول بالتالي إلى كائن سلبي يائس مدمر الهوية بلا هدف. وهنا يتوقف الإنسان والمجتمع عن تأثيره في صناعة التاريخ المتقدم والمتطور ويبقى وجودا هامشيا خلف كواليس التاريخ.